فكر محمد بن الحسن الحجوي*
من خلال مؤلفاته

أسية بنعدادة

تميز الحجوي بغزارة التأليف. فقد ترك أزيد من عشرة ومائة مؤلف بين صغير وكبير، على حد قوله: «تمكنت من تأليف مائة وعشرة من التآليف بين صغير وكبير، والحمد لله، هذا ما بلغت الآن»[1] فما أهم مميزات كتاباته؟ وكيف يمكن التعامل معها أو استعمالها من أجل فهم محددات شخصيته؟ وكيف وظفها هو نفسه في خدمة مشروعه الهادف إلى إصلاح المغرب وتحسيس المغاربة بأهمية «النظام» لكل أمة تريد أن تركب الرقي؟

لقد كان الحجوي واعياً بأهمية الكتابة وبواجب العالم في «السعي إلى مصلحة تعليم أولاد المسلمين» وأكد على ذلك عندما تولّى وظيفة المعارف لمدة طويلة[2].

وكان أول ما ألفه هو شرحه لبيت شعري مشهور: إن هند المليحة الحسناء ألفه زمن طلب العلم. وأول عهده بالتدريس سنة 1317هـ/1899م[3]. ولعل آخر ما ألف - مما هو معروف لحد الآن - الرحلة الحجازية، وفيها قيد كل انطباعاته عن المشرق وعن الأماكن المقدسة التي زارها صحبة ولديه الباشا محمد المهدي وعبد الرحمن سنة 1365هـ / 1946م. لذلك تبقى معرفتنا لمواقف الحجوي من الحماية بعد هذا التاريخ غامضة، إلا ما كان من أحكام الغير عليه، حيث نعت بالخيانة وصدرت أحكام قاسية في حقه وصودرت جل ممتلكاته[4]، واحتجزت خزانة كتبه التي توجد حالياً بالخزانة العامة.

ثابر الحجوي على الكتابة لمدة تقرب من نصف قرن لاشك أنه تأثر بأحداثه وأثر في بعضها، فجاءت مؤلفاته انعكاساً لما عاشه أو عاصره، كما عبر فيها بطرق مختلفة عما كان يخالج صدره أو يطمح إليه من تغيير. ولم تقتصر كتابته على اتجاه واحد، بل ساهم من خلالها في قضايا ومواضيع مختلفة، فكتب في الفقه والحديث والسيرة والتوحيد والتصوف، وفي الأدب واللغة والتاريخ والرحلات والاقتصاد، بل كتب كذلك في الطب[5] والموسيقى[6].

واستطاع الحجوي أن يحقق ذلك، لسعة تكوينه ولشدة حرصه على الانفتاح على قضايا عصره، فلم يرفض المستجدات، بل حاول فهمها واستيعابها بهدف تجاوز المستعصي منها، لأنه فطن للأخطار التي كانت تهدد الشخصية المغربية إذا ما اختار المغاربة الانزواء، ورفضوا الاستفادة من آليات الحداثة التي كانت تقتحم مجتمعهم عن طريق الحماية. وهكذا كانت جل مؤلّفاته تدخل ضمن مشروعه الهادف إلى البحث عن أسباب ودوافع أزمة مغرب مطلع القرن العشرين والخوض فكرياً وسياسياً في محو هذه الدوافع المعرقلة وتجاوزها بقصد جعله يركب عجلة الحداثة. ولقد تميز الحجوي بصراحته وبجرأته في التعبير عن رأيه، مما كان يجعله عرضة لعدة انتقادات واتهامات. وفي هذا الصدد، كتب عنه العالم أحمد سكيرج قاضي سطات في إحدى رسائله للشيخ محمد الحافظ التيجاني المصري قائلاً: «عالم بكل معنى الكلمة. وعلمه في طريق الإصلاح يرمي به إلى الانتقاد عليه من حيث لا يشعر شأن كل عالم إصلاحي لم يخالط شيخاً مربياً في طريق القوم»[7]. فهو لا يتردد في توجيه الانتقادات للسلاطين ولأطر المخزن وللعلماء ولسلطات الحماية. ونلمس جرأة

* أسية بنعدادة «الفكر الإصلاحي في عهد الحماية -محمد بن الحسن الحجوي نموذجا-» الفصل الثالث، ص. 89 - 119، المركز الثقافي العربي، ط. 1، 2003.

الحجوي في جل مؤلفاته وخصوصاً في «صفاء المورد في عدم القيام عند سماع المولد»[8]، حيث عبر فيه عن كراهية القيام عند ذكر مولد الرسول. وترتب على موقفه هذا جدال قوي مع علماء آخرين ذهبوا إلى حد تكفيره. ولم يتردد الحجوي كذلك في توجيه كتاب مفتوح للسلطان المولى عبد الحفيظ على يد الشيخ أبي شعيب الدكالي يقدم له فيه النصائح. وقد افتتحه بقوله: «من بديهيات الأمور المقررة لدى الأفراد والجمهور أن أحق الناس وأولاهم بالمحافظة على هيئة الحكومة وكيان المملكة واستقلالها أميرها...»[9].

وتتميز طريقة الحجوي في الكتابة بالدقة والتمحيص في الخطأ والصحيح. وعند تناوله لموضوع معين، يبدأ بالتعريف بالمصطلح، ويقدم نبذة تاريخية عن الكلمة، ويذكر أحياناً من سبقه إلى الموضوع[10]، ويورد مصادر أفكاره ويعلق عليها أحياناً ويبدي فيها رأيه ويصحح بعضها[11].

وليست كتابات الحجوي كلها كتباً مسترسلة ومنظمة على الطريقة المعروفة، بل جلها عبارة عن تقاييد ومذكرات ومحاضرات[12] ألقاها الحجوي في عدة مناسبات داخل المغرب وخارجه، أو فتاوى لأسئلة فقهية كانت ترد عليه من مختلف بلدان العالم[13] في قضايا مختلفة تهم العبادات والمعاملات وفي قضايا سياسية تهم التجديد والتحديث. وتبين كلها مدى حيوية هذا الفقيه والتزامه تجاه المجتمع الإسلامي عموماً والمغربي على الخصوص. وقد خلف الحجوي أيضاً تقارير مهمة جدّاً بحكم الوظائف التي مارسها، ولاسيما في مجال التعليم، حيث تتوفّر على معلومات قد لا نجدها في غيرها. ولعل كثرة الإنتاج وتشتته عند هذا الفقيه تجعل مهمّة الترتيب عسيرة. فكيف يمكن تصنيف أعماله؟

لقد ترددنا كثيراً في كيفية تصنيفها، ففكرنا أولاً في تصنيفها حسب الكتب المطبوعة[14] والمنشورة وتلك التي لا تزال مخطوطة[15] وهي أكثر وأهم في رأينا. ولكن هذا الاختيار – وهو أسهل – يبقى تصنيفاً تقنياً. ففكرنا ثانية في تصنيف مؤلفاته تصنيفاً يراعي اعتبار التسلسل الزمني. وكانت الغاية المتوخاة من هذه المحاولة هي الاقتراب من الظروف التي أنتجت فيها. غير أن البعض من مؤلفاته لا يحمل تاريخ الكتابة. ولذلك فضلنا تصنيفها حسب المواضيع التي تطرقت إليها، فصنفناها إلى مؤلفات تتناول أحداثاً تاريخية وسياسية معينة، وأخرى في الدفاع عن الإسلام وعن الشخصية المغربية، وثالثة تتعلق بمواقفه من بعض القضايا المعاصرة، ومؤلفات تحمل مشروعه الإصلاحي، ولاسيما في مجال التعليم والاقتصاد، وأخيراً مؤلفات في العلوم الدينية والأدبية علماً منا بأن في هذا التصنيف مجازفة لأن المؤلف الواحد قد يجمع بين مواضيع متعددة[16]. هذا بالإضافة إلى مؤلفه في السيرة الذاتية، ويتعلق الأمر بكتابه «العروة الوثقى بمشيخة أهل العلم والتقى»[17] وبمختصرها الذي استفدنا منه في التعريف بحياة هذا الفقيه، ومن خلالها نخرج بصورة عن الحياة الفكرية والثقافية لمغرب نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

مؤلفات في التاريخ والسياسة

كتب الحجوي عن أحداث عاصرها وربما ساهم فيها وأثر فيها وساهمت في بلورة شخصيته وتعميق فكره وتصوراته عن أوضاع المغرب والعالم الإسلامي، وتوحي بوعيه – بما هو مؤرخ – بمسؤوليته عن تاريخ بلاده. ومن بينها:

- كناش حول الحدود والمبادلات[18]: يتضمن شروط معاهدة 1845 المبرمة بين المغرب وفرنسا في شأن الحدود المغربية الجزائرية، واتفاق 1901 و1902. كما يتضمن فصولاً تتعلق بالمبادلات التجارية المغربية الجزائرية وبالديوانات لسنة 1902. ويلي ذلك قوائم في الصادرات والواردات بين الجزائر والمغرب وما تقبضه كل إيالة.
- تقييد في خبر دولة المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ[19]. كتبه خلال سنتي 1911 و1912. تناول في القسم الأول منه الفترة الممتدة من 1894 إلى 1908. وقد ضمنه أخباراً عن الوزير أحمد بن موسى (باحماد) ثم السلطان المولى عبد العزيز، وعالج فيه الأوضاع التي كانت سائدة آنذاك. وتطرق في القسم الثاني منه إلى الفترة الممتدة من سنة 1908 إلى 1912 تناول فيها الظروف والملابسات التي تمت فيها بيعة المولى عبد الحفيظ، وثورة قبائل الغرب وأحواز فاس سنة 1911، ووصف بإسهاب ثورة الجيش المغربي وختم هذا القسم بنص شروط عقد الحماية.
- انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره[20]: عبارة عن مذكرات تاريخية قيدها الحجوي عن مدة توظيفه بوجدة أميناً في ديوانتها ونائباً عن السلطان

في الحدود المغربية الجزائرية وأميناً للأسلحة والذخائر الحربية. تناول فيها الأحداث والثورات التي عرفها المغربي الشرقي، ولاسيما تلك التي قامت ضد مولاي عبد العزيز ونازعته الشرعية الدينية والسياسية، وأهمها ثورة بوحمارة. ووصف فيها حكمة المخزن والمؤسسة العسكرية والجهاز الماليّ، وكان يختم كل موضوع بتقديم مقترحات عملية. وفي ختام هذه المذكرات كتابٌ مفتوحٌ وجّهه الحجوي للسلطان المولى عبد الحفيظ يقدم له فيه مقترحات كتابية بغية إصلاح المؤسسة المخزنية وتنظيمها. ويقول الحجوي عن سبب كتابة المذكرات «كان الوقت مملوءاً بالحوادث العظمى ولاسيما حوادث أبي حمارة وهجومه على وجدة... وأنا شاهد ذلك، مع حوادث أبي عمامة وأبي حصيرة والأمير عبد الملك بن الحاج عبد القادر الجزائري... وقد رأيت بعض الناس كتب في ذلك... وفيها بعض أمور مخالفة لما عاينته... والحقيقة التاريخية يتعين على كل مؤرخ أن ينصرها»[21].

- رسالة إلى الوزير محمد الجباص[22]: يصف فيها الأحداث المهولة التي حلت بمدينة فاس عقب عقد الحماية الفرنسية، وهو شاهد عيان عليها.

- المغرب والحماية[23]: تقرير تاريخي كتبه الحجوي في 1932 عن حالة المغرب بعد الحماية، بيّن فيه ما قامت به الإقامة العامة من إيجابيات، وندد فيه بما ارتكبته من خروقات. كما قدّم لها فيه برنامج الإصلاحات التي يجب القيام بها في الميدان السياسيّ والعدليّ والاجتماعي.

- أهم الأخبار عن حرب الثأر والاستعمار[24]. عبارة عن مذكرات للحجوي عن الحرب العالمية الثانية وتتألف من 8 أجزاء، الجزء الأول والخامس منها غير موجودين، والثاني والثالث يتناولان أحداث سنة 1939 والرابع خصصه لسنة 1941. والسادس يؤرخ لسنة 1942 والسابع لأواخر 1942 وسنة 1943. أما الجزء الثامن فينتهي عند يونيو 1944. وقد كان الحجوي استقى معلوماته عن هذه الحرب من الصحف التي كان يقرأها كجريدة «الزهرة» التونسية وجريدة «السعادة»، وكذلك مما كان يستمع إليه في مختلف محطات الإذاعة (تركيا، برلين، لندن، القاهرة، واشنطن، الرباط...)[25]؛ أو من أفواه بعض الفرنسيين أو من بعض ضباط الحملة الأمريكية المستعربين، وكان يعلق أحياناً على بعض الأحداث التي ينقلها.

وتتضمّن هذه المذكرات معلومات هامة جداً تتعلق بشمال إفريقيا عامة والمغرب على وجه الخصوص، حيث يصف أوضاع المغرب آنذاك وانعكاسات الحرب على البلاد، ولاسيما في المجال الاقتصادي ويعطي أرقاماً للارتفاع المهول الذي عرفته الأسعار. كما يشير إلى أول ثورة بالمغرب للمطالبة بالاستقلال. وعن هذه الثورة أشار الحجوي إلى أن بقية الحديث عنها بعد ورقات 3 تحت عنوان: «بقية أول ثورة بالمغرب لطلب الاستقلال». غير أننا - ويا للأسف! - لم نعثر على هذه البقية، كما أن الجزء الثامن غير تام حيث توقف عند عنوان «الشروع في تحرير فرنسا»[26].

- جلوس محمد بن يوسف على العرش[27] محاضرة ألقاها الحجوي في الإذاعة وكانت أول محاضرة عربية ألقيت فيها تدشيناً لها. ألقيت في 11 أبريل 1928 في ارتقاء السلطان على عرش أسلافه، وتتضمن معلومات عن تاريخ الدولة العلوية.

- موجز عن تاريخ العرش العلوي بالمغرب[28]: مختصر لمحاضرته المشار إليها سابقاً.

- رحلة الركاب الشريف إلى السوس الأقصى: مسامرة ألقاها الحجوي يوم 27 يونيو 1928 في الإذاعة، عن الرحلة التي قام بها السلطان محمد بن يوسف إلى الجنوب، وكان الحجوي ضمن الوفد المرافق له. وقد استغرقت الرحلة أسبوعاً وافتتحها بقوله: «وها أنا أشنف الأسماع بخبر رحلته اللطيفة للثغور المغربية والنواحي الجنوبية التي ابتدأها من عاصمة الرباط على سواحل المحيط الغربي إلى أكادير ثغر السوس الأقصى القطر الأفيح في المغرب الجنوبي للمملكة الشريفة»[29].

وقد كتب الحجوي في التاريخ لتؤخذ العبرة من الماضي، ولتجاوز أسباب التراجع، ولبناء المستقبل؛ وكذلك للرد على من نعتوا بلادنا بأنها «بلاد برابرة لا تعرف مدنيّة». وهكذا ألّف في تاريخ إفريقيا كتاباً عنوانه:

- المناظر الجمالية في تاريخ إفريقيا الشمالية[30]. ألفه سنة 1916، وقد حاول ان يبين فيه أن مدنيّة المغرب جاءت نتيجة تداخل حضارات وثقافات مختلفة عربية وغير عربية. وفنّد الأبحاث الاستعمارية التي ركزت على همجية العرب وربطت التمدن بالرومان. وقد قسم الحجوي مؤلّفه هذا على حسب الدول التي حكمت إفريقيا

الشمالية كلها أو جلّها بعد أن حدد الإطار الطبيعي لهذه البلاد. ولكن الحجوي توقف في مؤلّفه هذا عند الدولة المرينية، ويذكر الحجوي أن تاريخه هذا يشتمل على مزيتين لم توجدا في غيره مما هو قبله: «أولاهما تلخيص الوقائع بصورة واضحة من غير تطويل ممل ولا اختصار مخل. وثانيتهما الإتيان بما أنتجته الفلسفة التاريخية المستفادة من الأحوال الواقعية بما لم أسبق إليه فيما أعلم»[31]. وقد سلك الحجوي سبيل التحري والتنقيح، واعتمد فيه على مصادر تاريخية مهمة كمؤلفات هيرودوث وسترابون، وابن عذاري وابن أبي زرع والبيذق والإدريسي وابن خلدون الذي اعتمد عليه كثيراً وابن الخطيب ومحمد بن علي السلوي، والضعيف، والزياني وغيرهم. وقد دافع فيه عن العرب الفاتحين قائلاً: «من أهم الأمور التي اهتم بها العرب الفاتحون تهذيب من بها من البربر بآداب الدين وإزالة ما بهم من التوحش ومفاسد الفنيقيين وأوهام الرومانيين»[32].

- الصورة الجمالية في خلاصة تاريخ إفريقيا الشمالية[33]. وكان في الأصل محاضرة لخص فيها الحجوي تاريخ إفريقيا الشمالية حين أملى «مسامرة الزائر بمشاهدة الجزائر» بنادي المسامرات العلمية بفاس، وطلب منه بعض أفرادها بإفرادها بتأليف تعليميّ مستقل لطلبة المدارس تسهيلاً لاستحضارهم تاريخ إفريقيا الشمالية القديم والحديث. وقد كتبه في 1916، واستهله بالتعريف بإفريقيا الشمالية وبسكانها، وتطرق فيها للدول التي تعاقبت على الحكم، وتوقف عند عهد السلطان المولى الحسن فيما يتعلق بالمغرب، وعند دخول فرنسا فيما يخص الجزائر وتونس.

وبعد كتابة الحجوي تاريخا عامّاً يهم شمال إفريقيا، خص بعض المدن بمؤلفات تاريخية مستقلة لطول الكلام فيه – على حد قوله – ولا يمكن استيفاؤه في كتاب «تاريخ إفريقيا الشمالية»..، فألّف:

- الفرصة الثمينة في تاريخ الترك بقسطنطينة، تناول فيه تاريخ قسطنطينة ونواحيها لأن تاريخها – في قول الحجوي – كان مجهولاً «وقد عثرت على بعض مواد يمكن بها تصور شيء من تاريخها الإجمالي أيام الدولة التركية فما بعدها»[34].
- تقييد عن قصة الصويرة من غير الابتسام[35]: ركز فيه على محاولات فرنسا احتلال هذه الجزيرة أيام السلطان عبد الملك بن زيدان السعدي المتوفى سنة 1040هـ / 1630م. وقد اعتمد فيه أساساً على كتاب «إيقاظ السريرة في تاريخ السويرة»[36]، وعلى الوثائق غير المنشورة لـ«دوكاستري».

كما لخص الحجوي بعض المؤلفات التاريخية لأخذ العبرة منها – كما يقول – من بينها :

- اختصار الابتسام عن دولة ابن هشام: يذكر الحجوي أنه وقف على هذا المؤلف، ووجد فيه إفادات هامة تتعلق بتاريخ دولة السلطان المولى عبد الرحمن ودولة عمه المولى سليمان؛ إلا أن صاحبه لم ينقحه من الخرافات البعيدة عن التاريخ، فكان بمثابة مسودة لم يتم تخريجها «فحبب إلي أن أنقحه وأخرج منه ما هو يتعلق بالتاريخ ثم أعلق عليه بعض تعاليق، واحتفظت غالباً على لفظ المؤلف.. ورتبته ترتيباً مناسباً للمقام، وسلكت فيه طريق الانسجام وجعلت له تراجم لتقريب المرام، وأبعدت عنه ما هو خيال وأوهام»[37].
- طيب الأنفاس في تاريخ بعض زوايا وأضرحة فاس: اختصره من تأليف عبد الكريم بن هاشم الكتائي. وقد ألفه في 1928م وأبدى ملاحظاته على بعض الطرق. وعند حديثه على الطريقة الكتانية، انتقد موقف عبد الحي الكتاني من الحماية قائلاً: «له وجهان وجه يواجه به الدعاة والفقراء من نشر السنة ونضرها وإماتة ما أحدثه أخوه من البدع... ووجه يواجه به الحكومة الحامية بالتزليف والتعضيد أو التعاضد والنصح والموالاة والاستفادة من نفوذها حسب ما تقضي به الظروف والمصالح»[38].

وحاول الحجوي من جهة أخرى، إبراز الشخصية التاريخية المغاربية عن طريق وضع تراجم لبعض الشخصيات نذكر منها:

- نخبة من تراجم بعض أعلام الجزائر[39]، محاضرة ألقاها الحجوي في 1938م بمناسبة افتتاح قسم بالمعهد العالي للعلوم والدراسات العربية الإسلامية بعاصمة الجزائر، وقد ترجم فيه لنخبة من أعلام الجزائر وعددهم 14 «لهم شهرة في التهذيب والعلم».
- ترجمة لأبي عبد الله محمد بن أبي القاسم السجلماسي أصلاً التادلي[40] كان من أشياخ السلطان المولى سليمان.

- النفس النفيس في ترجمة الوزير بن إدريس[41]: ترجم فيه لمحمد بن إدريس العمراوي وبيّن مدى تأثيره في الأدب وصناعة الكتابة في المغرب. وقد اعتمد فيه على «كتاب الابتسام عن تاريخ دولة بن هشام»، وعلى أكنسوس صاحب «الجيش العرمرم» و«رياض الورد» للقاضي الطالب بن الحاج، وأكّد هدفه من هذه الترجمة قائلاً: «وضع ترجمة لأعاظم رجالنا الذين كان لهم أثر خالد في علومنا وآدابنا وسائر أحوال مجتمعنا».
- بيوت العلم بمدينة صفرو[42]: ترجم فيه لعدد من علماء صفرو، ولاسيما على عهد السلطان مولاي الحسن والمولى عبد العزيز.

مؤلفات في الدفاع عن الإسلام

حاول الحجوي أن يبين في عدة مناسبات أن الإسلام ليس ديناً متحجراً يرفض الاجتهاد ولا يقبل التطور، وفنّد أقوال من يحمل مسؤولية تأخر المسلمين للدين الإسلامي. وفي هذا الصدد كتب يقول: «لا يتوهّمن أحد أن الدين يزهدنا في كل ما عند غيرنا... إن التشبه المنهيَّ عنه، في أمر العبادة... أما ما فيه فائدة... وكل ما فيه مصلحة الأمة والمجتمع، فلا نهي فيه»[43].

1. تأليف في محاربة البدع:

ندد الحجوي بالممارسات التي تشوه الإسلام، ومن جملة ما ألّفه في هذا المجال:

- أين حماة الإسلام؟[44]. تقييد كتبه الحجوي في 1939 في الرد على قولة بعض الجاهلين من التيجانيين إن صلاة الفاتح أفضل ثواباً من القرآن وإنها تعادل ستة آلاف سلكة من القرآن وأكثر بأضعاف مضاعفة. ووضع موقفه من الطريقة التيجانية الحقيقية قائلاً: «ومعتقدي في الطريقة التيجانية نزاهتها إذ كان فيها فحول العلم[45] وهي مبنية على الكتاب والسنة»[46]. كما بين موقفه من الطرق الصوفية المتعددة والتي هي من أسباب تشتت المسلمين وصدهم عن مصالحهم الحيوية. يقول: «فالطرق إنما حدثت في الإسلام لتأليف المسلمين وتوحيد صفوفهم على التوحيد الحق... وأما الخوض في ما سوى هذا من كون الشيخ هو الختم لكل الشيوخ تحجيراً لفضل الله وتشبهاً بالنبي... إنما هو تخدير لأعصاب المسلمين وتشغيل الفكر العام بأمور تلهيهم عن مصالحهم الحيوية»[47]... وأنهى الحجوي تقييده بتقديم نصائح للتيجانيين ولبقية الطرق منها : التمسك بكتاب الله وسنة رسوله وترك كتب الخرافات التي يؤلفها المقدمون في الطرق ويملؤوها بالأوهام الكاذبة. وقد خاطبهم قائلا: «إخواني، لا تمحى هذه الأوساخ من أدمغتكم إلا إذا رتبتم علماء سنيين متخرجين من المعاهد المشهورة بحرية الفكر الصحيح... ليسوا مقيدين بأي طريق إلا بكتاب الله وسنته، يلقنون لكم دروساً في عقائد المسلمين السلفية وفي التوحيد الحقيقي... يجب ان تتخذوا الزوايا لنشر العلم والأخلاق الإسلامية...»[48].
- برهان الحق في الفرق بين الخالق والخلق[49]: ألفه في 1918 وحاول فيه إظهار الفرق بين مقام الألوهية ومقام النبوة ومقام الولاية، وما ينبغي للمسلم اعتقاده، وما يجب تجنبه مما هو مخل بالأدب، كما قام فيه بالتنديد بعادات بعض العوام الذين يقدمون الذبائح والهدايا للأولياء. وقد قال عنه في «مختصره» إنه كاشف للبدع المحدثة بفكر مستقل غير متحيّز[50].
- أصول مذهب الوهابية[51]: ألفه في 25 ربيع النبوي 1343هـ / 1924م في أصل مذهب الوهابية، وفي موضوع الخلاف بين الوهابيين والسنيين وسبب كتابته عن المذهب، يقول: إن بعض طلبة الوقت ممن لم يرق في عينهم تأليفنا (أي «برهان الحق» المشار إليه سابقاً) هذا حسداً أو لبعض أغراض أخرى، أشاعوا عند العامة أنه مذهب وهابي... لست وهابيّاً ولا هذا التأليف فيه شيء من ذلك... وأما قولنا إننا أشعرية، فليس معناه أننا مقلدون للأشعري، بل إن اجتهادنا وافق اجتهاده. وإذا لم نرض التقليد لهؤلاء، فكيف لنا أن نرضاه لمحمد بن عبد الوهاب النجدي[52].

وقد وجه فيه نداء للمسلمين ليشتغلوا بأمور مفيدة لهم من إصلاح شؤونهم وما فسد من نظامهم الاجتماعي، وطالبهم بإصلاح أخلاقهم وصنائعهم وتجارتهم وفلاحتهم.

وخاض الحجوي في موضوع أخذ ببال عدة علماء عصره ويتعلق الأمر ببدعة إحياء ذكرى المولد النبوي والوقوف عند سماع ذكر مولد الرسول[53] فألف:

- صفاء المورد في عدم القيام عند سماع المولد[54]: تجرأ فيه الحجوي وعبر عن رأيه والقول بكراهة القيام وتبديع المحتفل. وقد تعرض من جراء ذلك

لعدة انتقادات، حيث يقول: «فقام زمرة ممن يدعي العلم وليسوا منه في شيء، وهم عبد الله الفاسي وأحمد بن المواز رئيس مجلس الاستيناف ومحمد الرافعي... وكل منهم ألف في الرد عليّ... وكلهم بَدَّل في كلامي وغيَّر سواءً في الدلائل والبراهين التي تمسكتها... واتفقوا جميعاً على الكذب والتقوُّل عليّ بما لم أقله من غير حياء ولا احتشام، ولاسيما ثانيهم... وقد تداركتني العناية الإلهية بكوني كنت طبعت «صفاء المورد». وكان ردهم بعد الطبع. فولا أنه كان مطبوعاً، لربما دخل الناس شكٌ في كذبهم.. كذبوا علي ونسبوا إلي أقوالاً توجب الكفر، وخصوصاً ثانيهم...»[55].

لذلك ألف الحجوي كتباً أخرى للرد عليهم من بينها:

- الحق المبين والخبر اليقين بما في قراطيس حجة المنذرين بما يخالف الدين[56].
- سوط الإفهام والإفحام[57].

2. الإسلام دين نظام ووئام يومن بالاجتهاد

من أهم المؤلفات التي تصُب في هذا الاتجاه:

- النظام في الإسلام[58]. أصل هذا الكتاب محاضرة ألقاها الحجوي بالمعهد الأعلى بالرباط في مؤتمره العلمي السادس في 11 أبريل 1928م، وذلك في جلسة رسمية حضرها رجال المخزن وأعيان العدوتين، وكثير من مستشرقي فرنسا والجزائر وتونس ووفد إسباني حضر لهذا الغرض. وقد كان الغرض من هذه المحاضرة الدفاع عن الإسلام بصفته ديناً جاء بالنظام وأن حقيقة الشريعة هي نظام المجتمع، كما رد فيه على من قال إن المسلمين لم يعرفوا نظاماً منذ ثلاثة عشر قرناً.
- الوئام في ظلال الإسلام ما بين العرب والقبائل والبربر الكرام: محاضرة ألقاها الحجوي بالمدرسة الخلدونية في تونس عام 1931[59]. وكان الهدف منها دفع المثالب عن الفتح الإسلامي، ودحض الأطروحة الاستعمارية التي كانت تردد فكرة العرب الغزاة، وأنهم أرغموا البربر على اعتناق الإسلام، وأنهم يختلفون عنهم في الطباع والعادات وفي طرق العيش. وفيه انتقد ما قاله ابن خلدون عن العرب قائلاً: «فكلام إمام التاريخ والأدب يجب علينا أن نؤوله ونحمله على خصوص البدو والمتأخرين وأن نحسن الظن به ونعتبر مقامه العظيم»[60].
- التعاضد المتين بين العقل والعلم والدين[61]: محاضرة ألقاها الحجوي في 1935 بطلب من السلطان الذي فوض له اختيار موضوعها بمناسبة افتتاح نادي الشبيبة المكناسية. فاختار لها الجواب عن سؤال وجه إليه: هل الدين فوق العقل والعلم أو العقل والعلم فوق الدين؟ وقد حاول أن يبرز فيها أن الدين الإسلامي لا يشكل عرقلة أمام العلم والعقل، وأنه لا يتنافى معهما، وأن المسلمين كانوا دائماً حماة العلم؛ كما أن القرآن لا يخلو من مبادئ العلوم الميكانيكية والكهربائية ومن الانتداب إليها[62].
- عبقريات الابتكار في العلوم والصنائع على عهد الإسلام[63]. وهو كتاب شرع في تأليفه في 1939، ترجم ليه لأشهر علماء الإسلام الذين اخترعوا أو ابتكروا أو اكتشفوا. وكان الهدف من تأليفه – على حد قوله – هو الرد على من يجحد وجود الابتكار في الإسلام.
- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي[64]: محاضرة في الأصل ألقى المؤلف خطوطها العريضة بفاس في ربيع II 1336هـ / 1917م، ثم عمل على تعميق أفكارها وتوسيعها ليجعل منها كتاباً ضخماً اعتبره جل العلماء على اختلاف مشاربهم مرجعاً أساسياً لتاريخ الفقه الإسلامي منذ عصر التشريع إلى وقتنا هذا. وفي حقه قال شيخ جامع الزيتونة صالح المالقي: «إنه قضى ديْناً كان على علماء الإسلام»[65].

ويبقى أهم ما تميز به «الفكر السامي» القراءة التي يعطيها مؤلفه للفقه الإسلامي، فقد حاول تبسيط قواعد هذا العلم، وجعله مسايراً وملائماً لمتطلبات العصر.

وحتى يتجاوز الحجوي كل سوء فهم، وقف مطولاً في بداية المؤلَّف على المصطلح، مركّزاً في تناوله على المنهج التاريخي المؤمن بالتطور والتحول. فلجأ عن وعي إلى التمييز بين فقه العبادات، حيث تكون القواعد ثابتة لا تتغير تخضع لما جاء في القرآن والسنة، وفقه المعاملات الذي يرتبط بالحياة اليومية للمسلم وهو يخضع للمنطق التاريخي المومن بالتطور والتغير ويعتمد على الاجتهاد. وفي هذا الاتجاه يمكن فهم التحقيب الذي اقترحه الحجوي لتقييد المراحل الفقهية التي حصرها في أربعة أطوار[66]: الطور الأول سماه طور الطفولة، ويعني نشأة الفقه وهو طور التشريع ويبدأ ببعثة

الرسوم (ص) وينتهي بوفاته. ثم الطور الثاني وهو طور الشباب، أي طور الاجتهاد ويبدأ ببداية عهد الخلفاء الراشدين حتى نهاية القرن الثاني. وأما الطور الثالث أي طور الكهولة، فيشمل القرنين الثالث والرابع وخلاله غلب التقليد على العلماء. وأخيراً، الطور الرابع، أي طور الشيخوخة. ويبدأ من القرن الخامس ليستمر إلى عصر الحجوي وهو طور الجمود والتراجع. ويرجع الحجوي ما آل إليه الفقه الإسلامي من تراجع إلى المناهج المتبعة في التعليم. لذلك دعا العلماء إلى العودة إلى الاجتهاد والتراجع عن التعصب، والأخذ من كل مذهب بما يوافق الأدلة ويناسب روح العصر والوقت والحال وذلك «لمجارات الأمم المتمدنة في مضمار الترقيات العصرية». بل يجوز كذلك الخروج عن المذاهب لضرورة أو مصلحة الأمة، إذ «لم يوجب الله على أحد التزام مذهب معين»[67]. وبالرغم من أن «الفكر السامي» هو مؤلَّف في الفقه، فإنه يتضمن معلومات قيِّمة في السياسة والتاريخ والتعليم والتصوف وبعض مشاكل المجتمع المسلم العصرية، بالإضافة إلى مجموعة من التراجم تزيد على الألف من ضمنها ترجمته لنفسه.

ويذكر أحد طلبة الحجوي في جريدة «السعادة»: «أن تاريخ الفقه كان مرسوماً في برامج الأزهر ولم تكن لهم مادة يعتمدون عليها حتى ظهر «الفكر السامي» فقررت القراءة به في كلية الشريعة من فروع الأزهر، وانتفع به العالم في الشرق والغرب مصر والشام والعراق والهند ويوغسلافيا وألبانيا من ممالك أوروبا وغيرها. وقرظه أعلام منها... ولا تجد تأليفاً يظهر في مصر أو الشام في فن يمت إليه بصلة إلا ونجده ينقل عنه كتأليف «فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام»... وكتاب «الإسلام والحضارة العربية» للوزير سامي كرد علي»[68].

وقد اعتبر صدور هذا المؤلف حدثاً ومنعطفاً كما يتبين من التقاريظ التي توصل بها من كثير من القضاة والمفتين والأدباء سواء من داخل المغرب أو خارجه، كمحمد داود مدير المعارف بتطوان[69]، وعبد الحميد بن باديس من الجزائر، وشيخ الإسلام المالكي الطاهر بن عاشور من تونس والمفتي الأول للحنفية بها محمد بن يوسف، وشيخ محدثي مصر النقاد أحمد رافع الحسين الطهطاوي الحنفي، ووزير المعارف بالشام ورئيس المجمع العلمي بدمشق محمد كرد علي، ورئيس علماء البوسنة والهرسك محمد توفيق وكيج[70]، والمستشرق الفرنسي وليام مارصي[71] وغيرهم.

- دفع الشبه الثمان في ترجمة القرآن[72]. كتبه في 1933، وقد رد فيه على مقالة وردت في العدد 15 من «مجلة المغرب العربية» للمحمدي، في عدم جواز ترجمة القرآن. يقول: «مما لا ينبغي أن تسوَّد به الأوراق... لا ينبغي أن يعدّ من جملة المباحث العلمية»[73].

لقد جوَّز الحجوي ترجمة القرآن إلى لغات أجنبية، شريطة أن يكون ذلك من طرف عالم ماهر في العربية وفي اللغة الأخرى التي يريد الترجمة إليها، وذلك للتعريف بالإسلام على حقيقته، كما يقول. وقد انتقد في هذا التقييد مواقف بعض العلماء المتحجرة قائلاً: «لا ينبغي للعلماء أن يكونوا حجرة عثرة في سبيل تقدم الإسلام، فهذا مما أخر المسلمين إلى الدَّرَك الذي هم فيه»[74].

- السر المذاع في جواز قراءة القرآن أمام المذياع[75]: أجاب فيه الحجوي على الأسئلة التي وردت عليه في شأن فتوى سمعوها تتلى في رمضان 1357هـ بمذياع الرباط منقولة عن بعض علماء مصر، مصرحة بتحريم قراءة القرآن أمام المذياع وظنوا أن إذاعتها كانت بإذنه. وقد أجاب الحجوي أن هذه الفتوى لا يؤيدها قرآن ولا سنة ولا إجماع ولا قياس صحيح: «لعمري أي جريمة لقارئ القرآن أمام الراديو وأي استخفاف بالدين وهو لم يقصد إلا موعظة الناس والنفع العام بنشر القرآن وإيصاله وتبليغه لمن يجهله من الأمم»[76].

مؤلفات في الحث على مواكبة العصر والأخذ بالمستحدثات

- إرشاد الخلق إلى الاعتماد في ثبوت الهلال على خبر البرق[77]:

عبارة عن «توليف» - كما يقول الحجوي - أجاب به عن سؤال طرح عليه في 1914 وتكرر في 1930: هل يجوز الاعتماد في ثبوت الهلال على التليفون أو التلغراف؟ وقد أفتى بجواز ذلك، معتمداً فيه على مبدأ القياس وختم تحليله قائلاً: «كيف (نرفض البرق) وهو يعمل به عند سائر الأمم في أقطار الأرض في الدماء والأموال والمخاطبات الرسمية بين الدول والحكومات؟»[78].

- تقييد في مسألة التأمين[79]: يتضمن سؤالاً ورد على الحجوي من بعض تجار الدار البيضاء في سنة 1937م حول السكرتاة أو الضمان المعروف أيضاً بلاسورانس على البضائع هل هو جائز أو لا. وقد أفتى بجوازها ودعا إلى التوسع في باب المعاملات، خاصة بما لا يخالف المنصوص لئلا نجعلها حجر عثرة في سبيل رقي الأمة.
- الأحكام الشرعية في الأوراق المالية[80]: جواب على سؤال ورد على الحجوي في 1919 بفاس: هل الأوراق المالية التي عمت بها المصارفة يجوز بيعها مفاضلة بعضها ببعض؟ وهل تجب فيها الزكاة أو لا، وإذا وجبت فيها الزكاة فهل تخرج من عينها أو لا؟ وقد اعتمد الحجوي للبث في المسألة على القياس، لانعدام نص يعتمد عليه. وقال: «إنها لا يجوز بيع بعضها ببعض مفاضلة ولا بالتأخير، ولا يجب بيعها بأحد النقدين كذلك... كما تجب الزكاة على الأوراق البنكية ودفعها من عينها: [81].
- معضلات العصر[82]: مجموعة من الأسئلة وردت على الحجوي من أحد علماء ألبانيا حافظ إبراهيم الربيشطي وأهمها سؤال يتعلق بلُبس البرنيطة حيث أصدر ملك ألبانيا أمراً لكل موظف بلبسها وإلا يعزله من وظيفته. فأفتى الحجوي بالجواز، وذلك للضرورة قائلاً: «كل ما لنا فيه فائدة ومصلحة عامة كلباس الجند وإحداث الأنظمة المحكمة وتقريب المواصلات وتعجيل الأخبار كالتلفون والبرق وغير ذلك.. فكل ذلك لا معنى للطعن على من أخذ به...»[83].

مؤلفات تحمل أفكاره الإصلاحية

يظهر أن هذه المؤلفات التي عرفنا بها سابقا أساسية في توضيح الإطار العام الذي كان يتحرك فيه الحجوي، وتشكل الخلفية التي ساهمت في بلورة مشروعه الإصلاحي الذي كان يقترحه لبلده.

وقد ترك الحجوي مؤلَّفات كثيرة ومتنوعة[84] تبرز فكرَه الإصلاحيّ المتكامل. ونحن لن نقف عند كل ما كتبه في هذا الشأن، ولكن سنختار نماذج معبِّرة في الاقتصاد والتعليم[85]، لأن الحجوي كان يعتبر هذين القطاعين أساسيَّيْن للنهوض بالمغرب، مع العلم أن كثيراً من مؤلفاته الآنفة الذكر تشير إلى بعض الإصلاحات التي كان يقترحها.

1. في الاقتصاد

- مستقبل تجارة المغاربة[86]: محاضرة في الأصل، كان الحجوي قد ألقاها بنادي المسامرات بفاس قيدها في 24 مارس 1921م، وحاول من خلالها أن يبين كيف يمكن النهوض بالتجارة، وتداركها مما يتهددها من أنواع المزاحمات الأجنبية والبعثات الأوروبية المتقاطرة من الجهات الست على البلاد المغربية، واعتبر أن تقديم النصائح في هذا المجال واجب عليه. وقد نوه بهذه المحاضرة المدير العام للمعارف هاردي بعد اطلاعه عليها قائلاً: «فهي بعد كونها ديواناً جامعاً لأصول التجارة وآداب التاجر أكبر دليل على غزارة علمكم وبُعْد غُوركم في المعارف العصرية ونظركم بعين التدقيق والاستنتاج إلى ما شاهدتموه في رحلتكم الأوروبية»[87]. وكما نوه بها معاوية التميمي من تونس قائلاً: «ومن الأهم في بلوغ المراد العناية بعلم الاقتصاد... إذ لا يتسنى تقدم بدونه... ومن حسن طالع الأمة أن يُقَيِّض الله فيها رجالاً يعرفون مكامن الداء... كالمرشد المصلح والناجح الأمين صديقنا العلامة الشيخ محمد الحجوي، فإنه ما ترك فرصة تضيع سدى، فإنه – رغم أشغاله الهامة – ما فتئ يرشد وينصح. بالأمس ظفرت مطبعة النهضة بمسامرة في تعليم البنات فنشرتها واليوم بأخرى في التجارة فأردفتها تعميماً للنفع...»[88].
- بالاقتصاد حياة البلاد[89]: مقالة لمحمد الحجوي ألفها في 6 رمضان 1352هـ / 1933م، تناول فيها الوضع الاقتصادي المتأزم في المغرب، وقدم مشروعاً للنهوض بهذا القطاع. ومن جملة ما اقترحه: أخذ الذوق الحاضر بعين الاعتبار، وكذلك التغيرات التي تحصل في الأسواق.

2. في التعليم

دار مضمون جل مؤلفات الحجوي حول دوافع وأسباب الجمود الذي أصاب المجتمعات الإسلامية عموماً والمغرب على الخصوص، ووقف بصفة خاصة في مشروعه عند الحلول التي قد تساعد المغرب على الخروج من هذا الجمود وتمكنه من ركوب قطار التحديث لمسايرة رقي الأمم. وكان يرى أن النظام التعليمي مفتاح لكل رقي محتمل فلم يكتف بالتأليف في هذا المجال فقط، بل تبنى مواقف ملزمة وملتزمة وتحرك بطرق مختلفة بهدف التأثير على النخبة وعلى العامة، لأنه كان يرى أن المسألة التعليمية تهم

المجتمع كله وبأنها تحدد مسار الأمم وتبلور هويتها في الحاضر والمستقبل. وهذا ما نلاحظه في مختلف الخطب والمحاضرات التي ألقاها في عدة مناسبات، وفي التقارير[90] التي وجهها للمسؤولين. وسنكتفي بتقديم نماذج معبرة منها.

- تقرير عن المعارف[91]: كتبه في 9 أبريل 1912، وانتقد فيه النظام التعليمي في القرويين وما آلت إليه هذه الجامعة، وعبر عن «آماله في رجال الإصلاح».
- رسالة وجهها الحجوي إلى الكاتب العام تيرار (Tirard) في مارس 1913 في كيفية انتعاش العلوم العربية[92].
- نظام القرويين الأساسي المؤسس لمجلسها الانتخابي[93]: كتب الحجوي هذا التقرير سنة 1913، ويتضمن برنامج الإصلاحات التي تم اقتراحها لتحسين وضعية جامع القرويين.
- كتاب وجّهه الحجوي للمدرِّسين الفقهاء بالمدرسة الثانوية الفاسية والرباطية في شأن برنامج الدروس العربية التي يجب عليه اتباعها، وذلك في سنة 1921[94].
- إصلاح التعليم العربي[95]: محاضرة ألقاها الحجوي في دجنبر 1922م بالمدرسة العليا بالرباط، وذلك في مؤتمر المستشرقين بالمعهد العالي للدروس العليا، وكانت أول محاضرة عربية ألقيت بالمدرسة المذكورة. وقد قامت جريدة «النهضة» التونسية بنشرها، ثم طبعتها طبعة مستقلة ونَفَدَت إذَّاك. وقد استهلها بقوله: «إن من جملة الأبواب التي يجب علينا إدخال النهضة إليها... وتعريف الأمة بما اعتراها، علومنا الدينية والعربية...»[96].
- تعليم البنات المسلمات[97]: محاضرة ألقاها الحجوي في 1341هـ / 1922م بالمدرسة العليا الرباطية يحض فيها على تعليم الفتيات وكيفية ذلك. وقد أنكر عليه البعض ذلك، فأجاب قائلاً: «إن تعليم المرأة تعليماً جارياً على النسق الذي بَيَّنْتُهُ ليس بدعة في الدين حتى يُنْكَرَ على حثّ الناس إليه، بل هو سنة الدين وواجباته. نعم! هو بدعة في العادة وفراقها أصعب شيء على الإنسان»[98].
- خطاب ألقاه الحجوي في مدرسة أولاد الأعيان بالرباط في 1923، يلفت فيه النظر إلى أهمية المدارس الفلاحية والصناعية[99].
- خطبة ألقيت بالمدرسة الصِّناعيّة[100] بالدار البيضاء في 1923 في الحثّ على التعليم الصناعيّ.
- خطاب الحجوي لافتتاح المسامرات في معهد الرباط في 1924 للتنويه بما قامت به الحماية في مجال التعليم مع بعض الاقتراحات التي أتى بها الحجوي في هذا المجال[101].
- المسامرة المكناسية التي أملاها بالمدرسة الحربية[102] باسم السلطان مولاي يوسف يبين فيها نوع العلوم التي يجب أن تدرس.
- خطاب الحجوي في حفلة توزيع الجوائز المدرسية الثانوية الرباطية في يونيو 1930 تناول فيها مشاريع الإصلاحات التي أنجزت في المدرستين الثانويتين وفي القرويين[103].
- أساس التهذيب الإسلامي أو أصول التربية الإسلامية للمدارس الابتدائية[104]: مجموعة دروس ألقاها الحجوي في التربية والتهذيب. ويذكر أنه أهداها للسلطان محمد بن يوسف دروساً في التربية النافعة التي ستؤدي لا محالة إلى نهضة عامة. وفي هذا الشأن خاطبه قائلاً: «الناس يهدون أفراساً وأموالاً جهلاً بمقدارك العالي إحساناً، وخير ما عنْدَ نَاصِح حكَمٌ قدمتها راجياً رضاك خجلاناً. إن أنفس هَدِيَةَ أقدمها لقرة عين مملكتنا المغربية سيدنا ومولانا أمير المومنين ناصر الملة والدين حامي القرآن المبين نصائح ثمينة في التربية الإسلامية ليكون بها تهذيب أنجاله الكرام الأمراء الفخام... ويطيل لنا بقاءه في العز المكين وإحياء السنة والدين وتعميم التعليم والتهذيب لأولاد المسلمين»[105]. وختم هذه الدروس بقوله: «مولاي! هكذا ينبغي أن يكون تهذيب سيدي ولي العهد وإخوته أدام الله لنا حياتهم وحياتكم حتى يصير هذا التهذيب خلقاً لهم ليكونوا محبوبين في شعبهم نافعين له قادة مهتدين. وسيكون نوراً مبيناً يستضاء بهم ويبلغ فيهم سيدنا وأمّته ما يؤمله ويؤملونه. والله ينصره»[106].
- نقد كتب الدراسة للعلوم العربية بإفريقيا الشمالية[107]: محاضرة ألقاها في مؤتمر اللغة والآداب العربية الذي انعقد بتونس في دجنبر 1931. وشخص فيها أسباب تأخر الأمة العربية والأمم الإسلامية. ولا يرى سبيلاً لذلك إلا بمحاربة داء الأمية ونشر التعليم وإصلاحه عن طريق «تأليف كتب الدراسة التي تتناسب روح العصر

للمبتدئين والمتوسطين وأما المنتهون فنُعلمهم بكتب المتقدمين... والتي تُدَرِّبُ على الخروج من ربقة التقليد والتعصب له»[108].

- حالة القرويين في شعبان 1348هـ / 1929م[109]: تقرير وصف فيه الحجوي حالة القرويين في الاجتماع الذي حضره مع المقيم العام ومدير المعارف، وطالب فيه بإدخال النظام على القرويين وركز معنى النظام في نقطتين أساسيتين: ترقية الراتب للمدرسين حتى يكون كافياً مماثلاً للعمل، وأن يكون التدريس دائماً ومنتظماً.

- رسالة كتبها الحجوي إلى السلطان في 23 جمادى I 1354هـ / 1935م يستنكر فيها ما وصلت إليه الدراسة في القرويين، افتتحها بقوله: «تدارك بحكمتك العلوية النبوية معهد القرويين قبل اضمحلال معارفه وعلومه. إن قراءة الدروس فيه صارت سرداً من غير فهم...»[110].

- تعليم الفتيات لا سفور المرأة[111]: ألقى الحجوي هذه المحاضرة بالرباط في 1933 ليوضح فيها رأيه في قضية تعليم المرأة، حيث فُهِمَ خطأً في محاضرته الأولى «تعليم البنات المسلمات». فهو يدعو إلى تعليمها تعليماً عربيّاً ابتدائيّاً، ولا يريد سفورها.

- تجديد علوم الدين: درس ألقاه الحجوي في جامع الزيتونة بتونس عند زيارته الرابعة لهذا البلد سنة 1938، أملاه على حديث أن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها. وتعرض فيها لمسألة التجديد والمجديين، ثم لخصه تأليفاً وطبعه[112]. وقد طالب فيه بتجديد الفقه، وقدم اقتراحات لكيفية تجديده أهمها: ترك الدراسة بكتب المتأخرين المختصرة، وتأليف كتب دراسية فقهية للتعليم الابتدائي ثم الثانوي ثم النهائي كل بحسب ما يناسبه. وتمرين الشباب على قواعد العربية وأصول الفقه ثم نترك لهم حرية الفكر والنظر»[113].

- المعارف في المغرب وجهود الحكومة[114]: محاضرة ألقاها الحجوي بمناسبة وداعه لوظيف المعارف في نونبر 1939. وتعطينا نظرة شاملة على التعليم بالمغرب إبان الحماية وعن كيفية سير مناهجه. وعن الجهود التي بذلها الحجوي في هذا المجال. وعن هذه المحاضرة يقول الحجوي: «تشرفت هذه النسخة بتوقيع جلالة السلطان المنصور بالله، ودعا لنا بقوله: «أعانك الله»، وأمر لنا بزيادات وقد زيد بالفعل ملحقان: أحدهما لمسألة القرويين، والثاني لتعليم البنات».

- أركان النهضة العلمية[115]: محاضرة ألقاها الحجوي في المسجد الأعظم ببوسعادة من أرض الجزائر في 1940 حدد فيها الأسس التي تقوم عليها النهضة العلمية.

3. في القضاء

- كناش يحتوي على أشغال مجلس الاستيناف الشرعيّ حول القضايا المعروضة قيده في دجنبر 1941[116].

- إصلاحات المجلس الشرعيّ الأعلى المغربيّ خلال عامي 1943 و1944[117]. وتوجد بهذه الكناشة قائمة الأشغال المنجزة خلال هاتين السنتين.

كتب الرحلات

قام الحجوي بتلخيص بعض الرحلات للاستفادة منها، أهمها:

- أنس السائر في اختصار البدر السافر، وهي رحلة لابن عثمان المكناسي لخصها الحجوي، لأنها – على حد قوله:

«تتوفر على معلومات قيمة حول نابل ومالطة وإسبانيا. فهي تمثل... ما كان حاصلاً من التقدم هناك، بحيث لو تجنب صاحبه هذا الأسلوب الأدبي الصعب...، لاستفاد منها الملوك والكبراء ولحصلت بسببها نهضة مغربية تكون سبباً في إخراج المغرب من بحر ظلماته إلى نهار المدنية»[118].

ولم يكتف بالتلخيص، بل كتب عن بعض الرحلات التي قام بها، أهمها:

- مسامرة الزائر برحلة الجزائر: مسامرة ألقى مضمنها بالمدرسة الثانوية بفاس لما كانت «بسويقة ابن صافي»[119].

- حديث الأنس عن تونس: جمع فيه ملخص رحلاته الثلاث لتونس سنة 1336هـ / 1918م، و1339هـ / 1921م، و1344هـ / 1925م، وكل هذه الرحلات – كما يذكر عبد السلام بن سودة – مشاهدات وتواريخ وجغرافية ومسائل علمية ومذكرات[120].

- الرحلة الأوروبية[121]: ملخص لرحلته التي قام بها إلى فرنسا وإنجلترا في 1919. وتتألف الرحلة من

قسمين: القسم الأول يتضمن تنقلاته عبر فرنسا في إطار رسمي مع الوفد المغربي الذي أرسله السلطان المولى يوسف لحضور احتفال عيدي النصر والجمهورية، والقسم الثاني يتناول الرحلة التي اختار أن يقوم بها إلى انجلترا ولاسيما إلى لندن ومنشستر لما سمع عنهما من العجائب، وللنظر في شؤون تجارية وزيارة بعض المعامل وبعض أصدقاء والده المقيمين هناك. وكان هدفه من تدوينها - كما يقول - إفادة أهل المغرب الذين لم يرحلوا ولم يعرفوا شيئاً من أحوال أوروبا، وفيها وقف على أسباب تقدم فرنسا وإنجلترا وحاول أن يبين من خلالها ما يستحب أخذه عنها: النظام والعلم والدراية بالتجارة، وما يجب تجنبه من الأمور التي يستنكرها الدين من تهتك وعدم الحياء والتبرج.

- الرحلة الأندلسية الفيشية[122]. تناول فيها الرحلة التي قام بها إلى الأندلس وفيشي الفرنسية سنة 1929. وإذا كان قد دون جزءاً من رحلته إلى الأندلس، فإنه لم يدون شيئاً عن رحلته إلى فيشي.

- الرحلة الحجازية المصرية[123]. دون فيها رحلته التي قام بها في 1365هـ / 1946م إلى الديار المقدسة صحبة ولديه محمد المهدي وعبد الرحمان مروراً بالجزائر وتونس ومصر. وتختلف هذه الرحلة عن الرحلات الحجازية المعهودة، لأن صاحبها قطع الطريق جواً فكان يحدد تنقلاته بالساعات، وكما تختلف من حيث المواضيع التي تطرق إليها حيث نجده - وعلى عكس رحالة آخرين - لا يطيل الحديث عن مناسك العمرة والحج بل يركز على جوانب إدارية ومالية وعلمية. وكم كانت حسرته شديدة على ما آل إليه العلم والعلماء من تدهور في الحجاز وحمل فيها المسؤولية للسلطان عبد العزيز آل سعود، بحيث لم تمنعه حفاوة الاستقبال الذي خصه به هذا السلطان من إبداء رأيه فيه بصراحة. أما بالنسبة للقاهرة فإن الحجوي لم يخف إعجابه بها وبما تتوفر عليه من معاهد وكليات وقد كان يسميها باريس العروبة «فإنك ترى فيها جل ما هو موجود في عواصم أوروبا كباريس ولندن وبرلين وروما وبروكسيل وغيرها من الأناقة والإتحاف ... من كل ما يسمى الآن بالرقي والتقدم ظاهراً»[124].

المؤلفات الفقهية والدينية

تتميز هذه المؤلفات بطابع التحرر، أهمها:

1. في الفقه [125]

- فتوى في مسألة من يصوم في غير وطنه في يوم الشك. ألفه في 14 رمضان 1317هـ / 1899م.
- القول السديد في من له الحق أن يعلن ثبوت رمضان والعيد. ألفه في 1333هـ / 1914م.
- تقييد في مسألة طلاق العوام. قيده سنة 1339هـ / 1920م.
- تقييد في أدلة مالك على وجوب الدلك في الغسل. قيده عام 1341هـ / 1923م.
- الخلافة في الإسلام. سؤال ورد على الحجوي عن الخلافة في الإسلام، قيده في 1924م عرف فيه بالخلافة وبأصلها وبوحدتها طيلة القرن الأول. وعن افتراقها يقول: «منذ افترقت الخلافة وكثر مدَّعوها في بغداد والأندلس والمغرب ومصر، والإسلام منحدر في المهواة العميقة التي وصل الآن إلى قعرها»[126]. وكما تحدث عن خلافة الأتراك وانتقد إبطالهم لها وما جنوه من ذلك قائلاً: «إنهم جنوا على أنفسهم جناية كبرى وعلى الإسلام كذلك عموماً: فما جنوه على أنفسهم هو قطع وصلتهم مع العالم الإسلامي وإبادة مجدهم وشرفهم القديم بين أمم الأرض... أما جنايتهم على العالم الإسلامي، فهي عظيمة: حيث قطعت أوصاله وهدمت قبلة اتحاده... بعد نبذهم للدين والتظاهر بعدائه»[127]. ولكن إبطالهم للخلافة - في رأي الحجوي - لا يوصلهم إلى حد الكفر. وقد خاطب كتاب الجرائد قائلاً: «وأسأل بلسان الإسلام والدين ومكارم الأخلاق من جميع كتاب الجرائد في الشرق أن يخففوا من حدة أقلامهم ضد الكماليين وأن يتركوا التفسيق والتكفير والتضليل جانباً. فإن المسألة غاية أمرها فرعية لا توجب شيئاً من ذلك»[128].
- تقييد في مسألة الأحاديث التي جاء فيها سهو النبي في الصلاة. قيده في 1349هـ / 1930م.
- تقييد في مسألة تشفيع الوتر. كتبه في 1350هـ / 1931م.
- تقييد لسؤال عن السدل والقبض في الصلاة. قيده في 1350هـ / 1931م.

- تقييد في أدلة نجاسة الخمر. قيده في 1351هـ / 1932م.
- تقييد في حكم الصلاة على غير الأنبياء استقلالاً. قيده في 1352هـ / 1933م. ردّ فيه الحجوي على سؤال ورد عليه عن قول أبي الطيب المتنبي في مدح سلطان حلب سيف الدولة بن حمدان:

صلّى الإله عليك غير مودع

وسقى ثرى أبويك صوب غمام

هل تجوز الصلاة على غير النبي؟ فأفتى الحجوي بجواز الصلاة على غير النبي، وساق أدلة على ذلك من القرآن والسنة ومن الكتب الصحاح ومن أقوال بعض العلماء. واستغل الحجوي هذا السؤال، لاستنكار موقف بعض العلماء من الشاعر عبد الله القباج بشأن القصيدة التي نظمها في مدح الحجوي، تقريظاً لكتابه «الفكر السامي»؛ وقد ضمنها بيت أبي الطيب المتنبي الآنف الذكر، حيث «قامت قيامة بعض أضداده – على ما ذكر الحجوي – وشنعوا وهرسوا بما لا فائدة في حكايته وكتبوا كتابين، أحدهما للسلطان على لسان علماء فاس، والثاني للمقيم العام على لسان علماء العدوتين يكفرونه ويطلبون من كل منهما تأديبه بعد استتابته وذلك «حسداً على أدبه – يضيف الحجوي – وجهلاً منهم بمقام مولانا السلطان وما أوتي من علم وحكمة. فكان مسطورهم فضيحة لجهلهم... وعدائهم لأهل العلم والأدب بدون سبب يريدون تنقيص الممدوح والمادح معاً وتثبيط همم أهل العلم ليبقى المغرب خاوي الوفاض من العلماء والأدباء، فلا من يتكلم ولا من يجيب، علهم يستغنون إذا أفلس وطنهم... لينفردوا بربان السفينة، وإن السفينة تكون عرضة للعطب إذا لم يكن لربانها أعوان ناصحون عارفون»[129].

- تقييد في مسألة من يقوم بركن دون آخر من أركان الإسلام. قيده في 1354هـ / 1935م.
- الرأي الصائب في المسح على الجوارب. قيده في 1354هـ / 1935م.
- تقييد في نصاب الحبوب في الزكاة. حرره في 1355هـ / 1936م.
- تقييد في مسألة ليلة القدر. كتبه في 1356هـ / 1937م. طبع ونشر في «مجلة الزيتونة» التونسية.
- القول الفصل في أقصى أمد الحمل. قيده في 1357هـ / 1938م، جواباً عن أسئلة وردت عليه من بعض الشباب في شأن أقصى أمد الحمل وعن دليله من الكتاب والسنة، وهل هو قطعيّ حتى لا تسع مخالفته، حيث قالوا: إن الأوروبيين أجمع أطباؤهم ونساؤهم على أن الحمل لا يزيد على تسعة أشهر إلا بشهر أو شهرين يمكثها الجنين في بطن أمه، وينكرون ما عند المسلمين من دعوى مكثه أربع أو خمس سنين. وقد ألقاها الحجوي محاضرة في مذياع تونس وكان لها صدى عميق في عموم الأندية الإسلامية.
- الحسبة في خطة الحسبة. جواب عن سؤال ورد عليه من العالم محمد الصادق بسيّس من جامع الزيتونة. في 1362هـ / 1943م متى ظهرت الحسبة منظمة في التاريخ الإسلامي، وما تشتمل عليه خزائن المغرب من كتب مؤلفة في الحسبة وما هي وظائف المحتسب.
- رسالة في حكمة الصوم والحج وما فيها من تضحية، نشرت في «مجلة الزيتونة».
- تلخيص المغازي النبوية.
- الأمالي الحديثية. بعض ما كان يجري من المذاكرات والمراجعات بين الحجوي والشيخ أبي شعيب الدكالي في المجالس السلطانية.
- رد على من زعم أن العار بالمصحف الكريم إكراه.
- ما قيل في النعال النبوية التي توجد بفاس.
- الخلاف الفقهي في البسملة مبنيّ على اختلاف القرآن في قراءتها.
- فتوى في مسألة مريض جعل حقنة دواء بإبرة في ذراعه في نهار رمضان.

2. في الحديث والسيرة النبوية[130]

- جواب عمن سأل هل خطب رسول الله عام حجة الوداع في عرفة يوم عرفة. قيده في 1348هـ / 1929م.
- نقد فني حديثيّ فلسفيّ على الكتاب المنسوب للنبي المخاطب به النجاشيّ الموجود بتركيا. حرره في 1349هـ / 1930م.
- الهجرة النبوية مبدأ التاريخ الإسلامي. قيده في 1358هـ / 1939م.

- الدفاع عن الصحيحين دفاع عن الإسلام. تمَّ تقييده في 1362هـ / 1943م. في الرد على من كذب سبعة أحاديث من الصحيحين البخاري ومسلم أو أحدهما. وقد انتقد فيه محمد عبده الذي أنكر صحة حديث خرج في «الصحيحين» حول سحر النبي من طرف يهودي لبيب ودفن السحر في بئر. وزعم أنه حديث باطل بدليل القرآن «والله يعصمك من الناس»، وادعى أنه من وضع الزنادقة أو المبتدعة. وقد أجابه الحجوي، مدافعاً عن صحة الحديث بالحجج والبراهين وعبر عن رأيه في هذا المصلح قائلا: «وهكذا الشيخ محمد عبده، فإنه رجل أدب وليس رجل حديث وفقه؛ وهو رجل زعامة في السياسة نعترف بفضله على بلاده ونفعها فيما سوى الفنين المذكورين، وتأليفه في التوحيد كرسالته فيه، وكتابه في الإسلام والنصرانية والإسلام والرد على منتقديه ممتع من أجلّ ما يكتبه المحققون. وتلميذه السيد رشيد رضا – رحمه الله – أعرف منه بالحديث، ومع ذلك كانت تخفى عنه الأحاديث المشهورة ويجب على من يريد أن يستدل بالقرآن أن يعرف علوم العربية ليتقن لفظه وعلوم البيان والمنطق والوضع والأصول ليدرك أسراره... بحيث إن من لم يعرفها يقع له الخطأ في فهم معانيها ويظن أنه فهمها وهو غالط جاهل»[131].
- تقييد في النعال الشريفة التي عند الشرفاء الصقليين الحسنيين المعروفين بالطاهريين هل تصح نسبتها له عليه الصلاة والسلام أم لا؟[132]

3. في التفسير[133]

- تفسير الآيات العشر الأولى من سورة «قد أفلح». درس ألقاه على علماء الزيتونة في 1336هـ / 1917م، وبها طبع. وكان أول صلة علمية بين القطرين بعد خمودها سنين طويلة – على حد قول الحجوي –.
- تفسير سورة «الإخلاص». كان الحجوي قد جعله ختماً لدروس التفسير التي كان قد ألقاها بالضريح الإدريسي بفاس سنة 1339هـ / 1920م.
- تفسير القرآن بالقرآن.

4. في التوحيد

- برهان الحق في أن العالم إنما ه وفي قبضة الحق[134]. ألفه في 1337هـ / 1918م.

المؤلفات الأدبية

- توليف أدبي في حل اللغز المشهور[135]): إن هند المليحة الحسناء ألفه في 1317هـ / 1899م.
- مختصر تاريخ النحو والصرف[136]. محاضرة ألقاها في الأدب سنة 1357هـ / 1938م بثانوية الرباط.
- تطور الإنشاء بالمغرب الأقصى[137]. محاضرة ألقاها في مؤتمر الآداب بفاس وطبع بـ«مجلة المغرب» بالرباط، دون تاريخ.
- قصيدة لامية في تهذيب الناشئة المدرسية[138].
- تقييد حول مخطوطات مكتبة جامعة القرويين[139].
- المنتخبات الجعفرية[140] تتضمن شؤوناً أدبية أخلاقية واجتماعية انتقاها الحجوي من عدة كتب وبعض المجلات.

وهكذا كتب الحجوي في مواضيع شتى ومن منظور عصره، دون أن يخرج عن نطاق الشريعة. وقد فاق في ذلك معاصريه، مما جعله عرضة لعدة انتقادات ذهبت أحياناً إلى حد تكفيره، خصوصاً من طرف بعض علماء القرويين وبعض أعضاء المخزن[141]. وقد بيَّنا ذلك في عدة مناسبات؛ في حين أن مؤلفاته قد حظيت بتنويهات كثيرة من علماء المشرق، ولاسيما من الجزائر وتونس. ونلاحظ أن معظم كتبه التي طبعت قد تم طبعها في تونس. كما كانت تخصص له أثناء زياراته لهذه الأقطار استقبالات حارة. ولا أدلَّ على ذلك من أقوال الصحف التونسية والجزائرية[142] التي كانت تنوه بمحاضراته هناك. وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن الأسباب التي كانت وراء الحظوة التي تمتع بها الحجوي خارج المغرب، والدوافع التي كانت وراء النبذ الذي كان يعيشه داخل هذا البلد. هل يرجع ذلك إلى الحسد كما أكد ذلك بنفسه مراراً، أو إلى أفكاره المتقدمة بالنسبة للمجتمع المغربي الموغل في التقليد، أو يعود إلى أسباب أعمق؟ [143].

الهوامش

(1) يعني سنة 1358هـ / 1939م وقد زاد على هذه التآليف بعد هذا التاريخ. (م.خ.ع، ح 127، ص. 269 و270).
(2) راجع الفصل الثاني «وظائف الحجوي».
(3) م.خ.ع، ح 115، في مجموع، ص. 276.
(4) انظر لائحة الأحكام التي أصدرتها بتاريخ 16 غشت 1958 لجنة البحث المحدثة بظهير شريف مؤرخ بسادس رمضان 1377 / 27 مارس 1958 في الجريدة الرسمية، عدد 2372.
(5) الحجوي، تعليق على الشقرونية في الطب لابن شقرون المتوفّى ام 1219هـ، جمعه الحجوي وضمنه بإيجاز فوائد بعض الحبوب الغذائية ومضارها. (انظر م.خ.ع، ح 243).
(6) كتاب في تاريخ الموسيقى العربية ألفه عند ترأسه لجنة البحوث في مؤتمر الموسيقى المنعقد بفاس في 1358هـ / 1939م. (تاريخ الموسيقى العربية، م.خ.ع، ح 114، ص. 287).
(7) يمكن الرجوع إلى الرسالة في أين حماة السلام، م.خ.ع، ح 251، ص. 4.
(8) م.خ.ع، ح 217، وكذلك 236.
(9) م.خ.ع، ح 123. سنعود لهذه المواقف الجريئة في عدة مناسبات.
(10) انظر على سبيل المثال «النظام في الإسلام» أو التعاضد المتين بين العقل والعلم والدين، أو «الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي».
(11) انظر انتقاده لكتاب ابن تيمية «موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول» في، م.خ.ع، ح 110، ص. 299. وكذلك ما صححه لابن زيدان في ج 1 من «الإتحاف» عن السفارة التي أرسلت إلى ألمانيا أثناء وفق 1901، في م.خ.ع، ح 123، ص. 5 هامش؛ وكذلك تنبيهه للخطأ الذي وقع فيه شيخه أبو شعيب الدكالي في أسانيده فيما يخص الحديث المسلسل بالأولية، ويرجع الحجوي هذا الخطأ إلى اعتماد شيخه على الحفظ أولاً ثم اشتغاله بالسياسة: «فالقصد تنبيهه على هذا الخطأ على أنه من أعرف أهل وقته وإن قلبي وجميع جوارحي ممتلئة تعظيماً لجانب هذا الشيخ الذي كان نادرة زمانه حفظاً وفهماً وكرم أخلاق» (م.خ.ع، ح 110).
(12) تحولت جل هذه المحاضرات إلى مؤلفات نذكر منها على سبيل المثال: «الصورة الجمالية في تاريخ إفريقيا الشمالية». وكتابه «الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي» الذي كان في الأصل محاضرة تحولت إلى مؤلف ضخم.
(13) نذكر على سبيل المثال سؤالاً ورد على الحجوي من عالم من جامع الزيتونة محمد الصادق بسيّس في شأن الحسبة، (م.خ.ع، ح 143) وآخر من عالم من ألبانيا حول معضلات العصر (م.خ.ع، ح 196). وسنعود إلى ذلك بتفصيل.
(14) طبعت جلها في تونس.
(15) وجدنا أحياناً بعض النسخ مكررة، لذلك اعتمدنا على المنقحة منها، وأحياناً تكون النسخة الوحيدة هي المسْودة، فتكثر فيها التشطيبات والطرر وتكون عباراتها أحياناً ركيكة وخطها رديء مما يجعل قراءتها صعبة. وقد جمع تبعض مؤلفاته التي لا تزال مخطوطة في كتاب واحد، تحت رقم واحد، كما هو الشأن بالنسبة لـ ح 115 أو ح 128، وهي التي أشرنا إليها «في مجموع».
(16) نموذج «الفكر السامي».
(17) وهو غير تام، ومختصره مطبوع بمطبعة الثقافة الجديدة بسلا، سنة 1937. (م.خ.ع، ح 140 و144).
(18) م.خ.ع، ح 125.
(19) م.خ.ع، ح 128 في مجموع.
(20) م.خ.ع، ح 123، ويعرف أيضاً بـ«الرحلة الوجدية». يبدو أن الحجوي ألف هذا المخطوط بعد1926م، لأنه انتقد فيه أشياء وردت عند ابن زيدان في مؤلفه «إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس» الذي انتهى من جمعه عام 1345هـ / 1926م.
(21) م.خ.ع، ح 123، ص. 3.
(22) م.خ.ع، ح 204.
(23) م.خ.ع، ح 254.
(24) م.خ.ع، ح 122. توجد مقتطفات من الصحف ملصقة بدفاتره مع تعليقاته عليها.
(25) كان الحجوي مع ذلك يحترز من أخبار الإذاعات: «قد أكثرت الإذاعات من الدعايات والإذاعات تابعة للدول المتحاربة لا تخرج إذاعة عن دعاية إما من جانب المحور أو من جانب الحلفاء» (م.خ.ع، ح 122، ج 7، ص. 36).
(26) م.خ.ع، ح 122، ج 8، ص. 41.
(27) م.خ.ع، ح 118 في مجموع.
(28) م.خ.ع، ح 118 في مجموع.
(29) م.خ.ع، ح 118 في مجموع، ص. 133.
(30) م.خ.ع، ح 240؛ وكذلك ح 110.
(31) م.خ.ع، ح 110، ص. 1.
(32) م.خ.ع، ح 110، ص. 58.
(33) في أربعة دفاتر، ولا تزال مسودة. م.خ.ع، ح 257.
(34) م.خ.ع، ح 114 في مجموع، ص. 262.
(35) م.خ.ع، ح 114 في مجموع، ص. 439.
(36) يذكر الحجوي أن مؤلفه هو التهراوي، في حين نشر الكتاب باسم الصديقي.
(37) م.خ.ع، ح 114 في مجموع، ص. 355.
(38) م.خ.ع، ح 115 في مجموع، ص. 374.
(39) م.خ.ع، ح 179.
يذكر الحجوي أنه تلقى الدعوة من والي الجزائر، فذهب بعد موافقة السلطان محمد بن يوسف: «وفي الحين، أبرقت لجلالته الكريمة في طلب موافقته التي تزيد العلاقات الثقافية بين القطرين الشقيقين تمتيناً». ربما أكد الحجوي طلب موافقة السلطان حتى لا يتهمه من جديد معارضوه كما فعلوا فيما قبل عندما كان نائباً عن السلطان في الحدود المغربية الجزائرية (انظر الفصل السابق).
(40) م.خ.ع، ح 245.
(41) م.خ.ع، ح 139.
(42) م.خ.ع، ح 110 في مجموع.
(43) أساس التهذيب الإسلامي، م.خ.ع، ح 227.
(44) أعطاه عناوين مختلفة منها: «القرآن فوق كل شيء»، و«حماة القرآن والتجانيين»، م.خ.ع، ح 120 و 149 و251.
(45) كان والد الحجوي تيجانياً؛ كما تلقى كثيراً من العلوم من منقول ومعقول على علماء هذه الطريقة. (م.خ.ع، ح 251، ص. 28).
(46) لقد تحامل على الحجوي أصحاب الطريقة التيجانية من المغرب والمشرق، نظراً لما وجهه لهذه الطريقة من انتقادات في مجلة «الرسالة». لذلك حاول في مؤلفه هذا أن يبين أن انتقاداته هي موجهة للجاهلين من التجانيين ممن يدّعون الطريقة ويلفقون أكاذيب عليها كما فعل احرازم برادة في مؤلفه «جواهر المعاني» وهو «غير جواهر المعاني» للشيخ التيجاني. وقد بعث أحمد سكيرج، قاضي سطات، رسالة إلى الشيخ محمد الحافظ التيجاني المصري في 1938 يقول له فيها: «ولا تسأل عما أثار ذلك الجواب منه في عوام الإخوان بما كابدت به محنة في كف ألسنتهم عن صفينا المذكور لأنه يصدع بالحق في أجوبته الملقاة عليه على وفق ما علم... ولا يبالي عند صدعه بالحق فيما يراه بما يحرك به أقلام الانتقاد عليه مثل ما كتبه في حق الشيخ الكتاني في تاريخه وما كتبه في مسألة القيام في سرد المولد النبوي... ومثل ذلك مقالته في أهل الرباط... ولا أنكر عليه سوى عدم المداراة... مع أنهم لو تثبتوا ونظروا بعين الإنصاف لما كتبه، لوجدوا كلامه إنما هو في ما يشنعه الجهلة منهم، مع نظره للطريقة ومؤسسها بعين الاحترام». (انظر الرسالة كاملة في م.خ.ع، ح 251، ص. 3).
(47) م.خ.ع، ح 120، ص. 52 فما بعدها.
(48) م.خ.ع، ح 120، صص. 98-97.
(49) م.خ.ع، ح 114 في مجموع ص. 1.
(50) انظر الصفحة 72 من «مختصر»ه.
(51) كانت مؤلفات الحجوي تتعرض للتأويل وللانتقاد. لذلك طالب في كتابه هذا، بعدم تحريف أقواله: «وأطلب ممن يريد أن ينقل شيئاً من رسالتي أن ينقله بلفظه ولا يغير شيئاً منه. فالنقل بالمعنى - في نظري - هدم للمبنى ومثلة تشوه الخلق وتلبس الباطل بالحق... وذلك أني ألفت قبل هذا رسالة في منع أو كراهة القيام عند ذكر المولد... فقام زمرة ممن يدعي العلم... وكلهم بدَّل في كلامي...» (م.خ.ع، ح 114، ص. 217).
(52) م.خ.ع، ح 114، ص. 219.
(53) كتب في موضوع هذه البدعة عدد كبير من العلماء، تذكر من بينهم أحمد بن المواز صاحب «حجة المنذرين على تنطع المنكرين» وعبد السلام بن الطيب الشرفي الأندلسي مؤلف «الصارم القاطع المبرد لشبه الأخذ بالقيام عند قراءة المولد» والذي انتصر فيه للحجوي في الرد على الرافعي. (للمزيد، انظر: م.خ.ع، ح 112).
(54) أول تأليف طبع له بفاس سنة 1918.
(55) م.خ.ع، ح 110 في مجموع.
(56) م.خ.ع، ح 232 طبع بتونس.
(57) طبع بالجزائر.
(58) طبع بالمطبعة الوطنية بالرباط، ورقمه مخطوط في الخزانة العامة ح 118.
(59) ربما ألقيت هذه المحاضرة ردّاً لفعل الظهير البربري الذي أصدرته فرنسا حيث كانت في السنة التالية لصدوره. وقد طبعت هذه المحاضرة في تونس.
(60) المصدر نفسه، ص. 30.
(61) طبعت هذه المحاضرة كذلك بتونس ورقمها مخطوطة بالخزانة العامة ح 113.
(62) م.خ.ع، ح 113، ص. 69.
(63) طبع ونشر في تونس ورقمه مخطوطاً في الخزانة العامة ح 199.
(64) طبع هذا الكتاب في أربعة أجزاء، طبع الجزء الأول منه بالرباط، والثاني والثالث بتونس، والرابع بفاس، وذلك ما بين 1917 و1939.

(65) انظر م.خ.ع، ح 199، ص. 20.
(66) لاحظ تأثر الحجوي بالمنهج الخلدوني.
(67) الحجوي، الفكر السامي، ج 2، صص. 417 و418.
(68) م.خ.ع، ح 199، ص. 20، نقلاً عن جريدة السعادة من عدد 4793 إلى 4795 بتاريخ، رمضان 1358 / نونبر 1939.
(69) انظر رسالة محمد داود للحجوي في م.خ.ع، ح 224 في مجموع.
(70) راجعها في الفكر السامي، ج 2، صص. 575–541. وقد بلغ مجموع ما سرده من التقاريظ في آخر المجلس الثاني من الفكر السامي واحداً وعشرون تقريظاً.
(71) انظر رسالة وليام مارصي عند الحجوي في: م.خ.ع، ح 156 في مجموع.
(72) طبع بتونس، ورقمه مخطوطاً في الخزانة العامة ح 114 في مجموع.
(73) المصدر نفسه، ص. 508.
(74) م.خ.ع، ح 114، ص. 150.
(75) م.خ.ع، ح 134.
(76) المخطوط نفسه، ص. 7.
(77) خاض عدد كبير من العلماء في مسألة العمل بهذه المخترعات الوقتية، من ضمنهم محمد بوجندار الذي ألف «الإنصاف في مسألة العمل بخبر التلغراف»، ومحمد بن عبد السلام الشبيهي ألف «كمال الاعتراف بالعمل بالتلغراف»؛ وعبد الله الفاسي، سيوف الحق والإنصاف لردع من لم يقل بالعمل في ثبوت رؤية الهلال بالتلغراف؛ (م.خ.ع، ح 112، ص. 11؛ وسعيد بنسعيد العلوي، الاجتهاد والتحديث، مرجع سابق، صص. 42 و105).
وقد حصل جدل حاد بين الحجوي وبين علماء آخرين في شأن إعلان الثبوت الشرعي لرؤية هلال رمضان لعام 1363هـ / 1944م وكان الحجوي آنذاك وزيراً للعدل. وقد عمد إلى إصدار إعلان ضمنه فتواه في صحة الرؤية المشار إليها في الوقت الذي ضمنه قراراً من وزارة العدلية بالتزام المملكة بعد موافقة الجلالة السلطانية عليها. وكان المؤرخ عبد الرحمن بن زيدان من ضمن العلماء الذين عارضوا الحجوي في الرأي، حيث ألف كتاباً رد فيه عليه وهو «تبيين وجوه الاختلال في مستند إعلان العدلية لثبوت رؤية الهلال»، المطبعة المهدية، 1944، تطوان. للمزيد راجع: عباس الجراري وسعيد بنسعيد العلوي وأحمد التوفيق، «عبد الرحمن بن زيدان»، سلسلة أعلام المغرب، مطبعة إيديال، 1998، صص. 84–78.
(78) م.خ.ع، ح 115 في مجموع، ص. 301.
(79) م.خ.ع، ح 114 في مجموع.
(80) م.خ.ع، ح 115 في مجموع من ص 73 إلى 120.
(81) وصلت تقاريظ للحجوي على جوابه من عدد كبير من العلماء ومن ضمنهم القاضي أحمد سكيرج والشيخ أبو شعيب الدكالي والعابد بن سودة من المغرب، ومعاوية التميمي ومحمد الساش ناظر كتب جامع الزيتونة من تونس. (راجعها في م.خ.ع، ح 115، في مجموع، صص. 118–112).
(82) م.خ.ع، ح 196.
(83) م.خ.ع، ح 196، ص. 9.
من ضمن الأسئلة التي وردت على الحجوي: قبض مرتب بدون عمل، ومفتريات التيجانيين.
(84) انظر ما كتبه مثلاً في شأن إصلاح الموسيقى في ح 114 في مجموع، ص. 587: «إن أردتم أن يعود للطرب المغربيّ رونقه ولذّته، يجب تنظيمه كما نظم المصريون طربهم تبعاً للأوروبيين الذين أدخلوا التنظيم على جميع نواحي حياتهم... لتنظيمه يجب ترك الطار الذي جاءنا من السودان على عهد المنصور السعدي، وتكفي عنه الدربوكة، ولتكتفوا بالرباب والعود كما كان عند الأندلس».
(85) لقد أشرنا سابقاً إلى مؤلف يتضمن برنامج الإصلاحات التي يجب القيام بها في الميدان السياسي والعدليّ والاجتماعي وهو «المغرب والحماية».
(86) طبعت هذه المحاضرة في تونس بمطبعة النهضة، ورقمها مخطوطة في الخزانة العامة ح 115 و118 و132.
(87) مصدر سابق، ص. 88.
(88) مصدر سابق، ص. 23.
(89) م.خ.ع، ح 113.
(90) هذه الخطب والتقارير كثيرة جداً، وتزودنا بمعلومات قيمة عن التعليم في عهد الحماية، وكيفية تطوره وتنظيمه، وعن المدارس وكيفية توزيعها الجغرافي، وعدد التلاميذ ذكوراً وإناثاً، مسلمين ويهوداً وأوروبيين. انظر على سبيل المثال ح 127: «تقييد أشغال المعارف من تقارير ومكاتب وخطب مدرسية وغير ذلك من الصادر والوارد ابتداء من عام 1337».
(91) م.خ.ع، ح 129، في مجموع.
(92) م.خ.ع، ح 129 في مجموع.
(93) م.خ.ع، ح 129 وح 130.
(94) م.خ.ع، ح 129 في مجموع.
(95) م.خ.ع، ح 115 و152 و237.
(96) م.خ.ع، ح 115، ص. 475.
(97) وتعرف كذلك بالمحاضرة الرباطية في إصلاح تعليم الفتيات بالديار المغربية، وقد طبعت هذه المحاضرة بمطبعة النهضة التونسية، وتوجد نسخة منها مخطوطة في م.خ.ع، ح 114 في مجموع.
(98) مرجع سابق، ص. 31.
(99) م.خ.ع، ح 118 في مجموع، وح 127.
(100) م.خ.ع، ح 115 في مجموع.
(101) م.خ.ع، ح 224 في مجموع.
(102) م.خ.ع، ح 115 في مجموع.
(103) م.خ.ع، ح 118 في مجموع.
(104) م.خ.ع، ح 227.
(105) المخطوط نفسه، ص. 1.
(106) المخطوط نفسه، 17.
(107) مقال منشور في «مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق»، المجلد 15، 1937، ص. 59. وقد كانت هذه المحاضرة تقاطع بالتصفيق الحار على كل موضوع من موضوعاتها استحساناً وابتهاجاً.
(108) مرجع سابق، ص. 24.
(109) م.خ.ع، ح 127، ص. 147.
(110) م.خ.ع، ح 127، ص. 225.
(111) وردت بعنوان آخر: «تعليم الفتيات لا تحرير المرأة». (م.خ.ع، ح 237، وح 205). وقد تناول مسألة تعليم المرأة في عدة محاضرات أخرى.
(112) انظر صدى هذه المحاضرة في الصحف التونسية وعلى لسان بعض علمائها، في ملحق المحاضرة المطبوعة.
(113) تجديد علوم الدين، صص. 10 و11.
(114) م.خ.ع، ح 199 وح 152. نشرت بجريدة «السعادة» عدد 4796 و4797 بعد تسجيلها في أسطوان عند إلقائها بالمذياع الرباطي لتلقى في باريس بمذياع مونديال وفي مصر والشام والجزائر وتونس.
(115) م.خ.ع، ح 156.
(116) م.خ.ع، ح 225.
(117) م.خ.ع، ح 207.
(118) م.خ.ع، ح 245، ص. 1.
(119) عبد السلام بن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1960، ج 2، ص. 366، وعبد الكبير الكتاني، زهر الآس، مصدر سابق، ص. 347. غير أننا لم نعثر على هذه الرحلة.
(120) المرجع أعلاه، ص. 339، غير أننا لم نعثر على هذه الرحلة.
(121) م.خ.ع، ح 115 في مجموع.
ويذكر مترجما الرحلة عبد الله ساعف وألان روسيو، أنها كانت أول رحلة مغربية قدّمت باللغة العربية – صورة إيجابية في مجملها عن فرنسا.
Voyage d'Europe le périple d'un réformisme، traduction Alain Rou – sillon et Abdellah Saâf، op.cit، p. 174.
(122) م.خ.ع، ح 260.
(123) م.خ.ع، ح 161. ولا تزال مسودة.
(124) الرحلة الحجازية، م.خ.ع، ح 161، ص. 4.
(125) راجع ما كتبه في الفقه في م.خ.ع، ح 113 و114 و115 و124 و133 و143. وسوف نقتصر على البعض من مؤلفاته في الفقه والحديث والتفسير.
(126) م.خ.ع، ح 124، ص. 38.
(127) المصدر نفسه، صص. 39–38.
(128) المصدر نفسه، ص. 45.
(129) م.خ.ع، ح 113، ص. 158 وما بعدها وح 114، ص. 444، حيث وردت بعنوان آخر: «هل تصح الصلاة على غير النبي؟» والنسختان متكاملتان.
(130) راجع ما كتبه في الحديث والسيرة النبوية في: م.خ.ع، ح 113 و114 و115 و143 و180 و211.
(131) م.خ.ع، ح 143، صص. 20–15.
(132) عبد السلام بن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج 2، ص. 450.
(133) م.خ.ع، ح 115 و132 وح 140.
(134) م.خ.ع، ح 115 في مجموع.
(135) م.خ.ع، ح 115 في مجموع.
(136) م.خ.ع، ح 195 في مجموع.
(137) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(138) م.خ.ع، ح 186.
(139) م.خ.ع، ح 113.
(140) م.خ.ع، ح 198.
(141) هناك مجموعة من العلماء من المغرب نوهوا بأعماله ونظموا عدة قصائد في مدحه. وقد جمعها الحجوي في مؤلفه الآنف الذكر (م.خ.ع، ح 131).
(142) انظر هامش رقم 5 في المقدمة.
(143) كأصله الجزائري حيث كان علماء فاس يرفضون الاعتراف «للواسطيين» – كما كانوا يسمونهم احتقاراً – بتفوقهم العلمي. وربما لأجل هذا رفضوا البرنامج الذي تقدم به الحجوي لإصلاح مؤسستهم العريقة: القرويين.